الباب الأول

شخصيات عربية

الفصل الأول

علي بن أبي طالب.. قائداً سياسيّاً*

(*) بحث منشور في: المنار، مكتب المنار، القاهرة وباريس، يناير ١٩٨٩، ص ص ١٣٤ - ١٥٠. وقد تم إعداد هذا البحث في صيغته الأولى عام ١٩٧٦، ونشر في مجلة: الشورى، طرابلس، يوليو ١٩٧٨، ص ص ٦٧ - ٨١.. وأجرينا عليه في الطبعة الراهنة تعديلات طفيفة جداً.

كان اختيارنا لعلى بن أبى طالب، بالذات، كموضوع لدراستنا عن أحد نماذج القيادة السياسية، اختيارًا مرجعه إلى أهمية وحيوية الدور الذى لعبه على بن أبى طالب فى التاريخ العربى والإسلامى عمومًا، وإلى مغزى هذا الدور، سواء من حيث حجمه واتساعه أو من حيث دلالاته العقائدية.

فقد صار على بن أبى طالب فى التاريخ العربى والإسلامى رمزًا من رموز الثورة الدائمة، ورمزًا من رموز التمرد، وذلك منذ اللحظة التى استشهد فيها، وخاصة منذ اللحظة التى انتهى فيها النسل المباشر لعلى بن أبى طالب من الرجال فى موقعة كربلاء.

ولسنا فى معرض دراسة أسباب هذه الظاهرة، ولكن نكتفى بالقول أن عليًا - بما مثله فى سيرة حياته من مفاهيم - كان وراء الكثير من الحركات السرية فى الإسلام (حركات الشيعة) والكثير من الدول والحكومات الإسلامية، كما كان سندًا للحركات السياسية التى استندت إلى حق أهل البيت عمومًا (العباسيين والفاطميين). فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا الدور العلوى لم يكن مبنيًا على الفراغ وإنما كان مؤسسًا على ما تمتع به على بن أبى طالب من صفات وما اتسمت به سيرة على من مواقف، إذن لاستقام لنا لماذا اخترنا على بن أبى طالب.

وسوف تتركز عنايتنا على رسم صورة عامة للشخصية القيادية لعلى بن أبى طالب - كقائد سياسى، ومن ثم فإن ما نورده من معلومات واستنتاجات إنما يتركز على هذه الزاوية على وجه التحديد.

ولكى يتحقق الهدف من الدراسة - على الوجه الأكمل - لا بد أن نحدد النمط الذى يندرج فيه على بن أبى طالب قائدًا سياسيًا، من بين أنماط القيادة السياسية.

ولما كان من الضرورى أن يكون اختيار هذا النمط جزءًا من نظرية عامة عن القيادة السياسية، فإن من الضرورى بالتالى أن يستند توصيفنا لعلى بن أبى طالب إلى نظرية عامة فى أنماط ونماذج القائد السياسى، ويمكن مبدئيًا أن ننطلق من نظرية «يونج»، وبحيث نميز بين سبعة أنماط من القيادة، على حد تعبير عالم السياسة العربى حامد ربيع:

١- **القائد الرئيس Boss**: وتكمن قدرته الحقيقية فى التأثير على عناصر الموقف وتطويعها لصالحه.

٢- **القائد الديمقراطى**: ويمتاز بأنه يسير وراء الجماهير، ويتبنى مواقف «معتدلة».

٣- **القائد البيرقراطى**: وهو موظف صار قائدًا سياسيًا، غير قادر على اتخاذ القرار.

٤- **القائد الدبلوماسى**: وهو شديد المرونة مع المواقف التى تؤثر فى مصالحه الشخصية. ولذلك فإنه مستعد لتلوين نفسه مع كل موقف فى سبيل مصلحته.

٥- **القائد الثورى أو المصلح**: وهو رجل يمثل الكمال، ويرفض أية صعوبة عملية، ولا يقبل الحلول الوسطى والمساومة.

٦- **مثير الفتن والقلاقل:** Agitator وهو نوعية خاصة من القائد المصلح - وهو على استعداد للالتجاء إلى العنف فى مختلف المواقف.

٧- **القائد العقائدى:** وهو صورة من صور القيادة الفكرية.

ومن غير المتصور أن نضع قائدًا سياسيًا بعينه تحت أحد النماذج السابقة كما هى، فالواقع دائمًا أكثر تعقيدًا من الحقائق المجردة، وإنما قصارى جهدنا أن نقترب بأحد النماذج ليصور تصويرًا تقريبيًا ونسبيًا الشخصية القيادية التى ندرسها. ولا يعنى إطلاق مثل هذا النموذج على هذه الشخصية أنه يستوعبها استيعابًا كاملاً وإنما هو بالأحرى أداة منهجية للاقتراب منها.

فإلى أى النماذج يمكن أن ينتمى على بن أبى طالب؟

من دراسة هذه الشخصية، المتعددة الجوانب، نستطيع أن نقول أنها أقرب ما تكون إلى شخصية «القائد الثورى»، ومن استقراء خصائص شخصية «القائد الثورى» نجد أنها تتميز أولاً بوجود حلم أو تصور تسعى إليه القيادة السياسية، أى بوجود نوع من المثالية السياسية.

وتتميز ثانيًا بالسعى فى سبيل هذه المثالية دون اعتداد بالمصاعب ودون نظر إلى العائد الشخصى أو المصلحة الخاصة أو حتى وجود القائد الفرد الحى نفسه.

وتتميز ثالثًا بعدم القابلية للفساد والإفساد.

وقد تمثلت هذه الخصائص فى القيادة السياسية لعلى بن أبى طالب بالإضافة إلى سمات خاصة تنحرف من هذا المفهوم التجريدى العام وهو ما سوف يتضح لنا بعد دراسة هذه القيادة.

شخصية على بن أبى طالب:

تتحدد القيادة السياسية، انطلاقًا من تفاعل نوعين من العوامل:

- عوامل ذاتية تمثل جماع شخصية القائد.
- عوامل موضوعية تتكون من مجموع الظروف المحيطة بهذه الشخصية، والتى تتفاعل معها الشخصية لتنتج نمطًا معينًا من أنماط السلوك القيادى.

ولكى نطبق النهج العلمى الصحيح، يلزم أن ننطلق من الخطوة الأولى فى المنهج وهى خطوة التجريد والتى اتبعناها فيما سبق من هذا البحث، هذا التجريد الذى تمثل فى تحديد النمط العام للشخصية القيادية لعلى بن أبى طالب، إلى خطوة ثانية هى «التقريب المتتابع» أو «التجسيد المتتالى» أى أن نحاول الاقتراب بهذا النمط المثالى المجرد شيئًا فشيئًا مع الوقائع: سواء الوقائع الذاتية أو الموضوعية، وهو ما يستلزم منا بحث هذين النوعين من العوامل، وهما

شخصية القائد أى تكوينه السيكولوجى، ثم العوامل الموضوعية أو البيئة الاجتماعية.

وبعد أن نتناول هذين النوعين من العوامل فى فقرتين مستقلتين من البحث، سوف ننتهى بعملية «اختبار الصدق» أى مواجهة الوقائع بالنمط المجرد، أى مواجهة الخطوة الثانية بالخطوة الأولى لنجرى عملية التحقق من صدق والمقدمات.

ولذا فإنه يلزم أن نبدأ بتناول شخصية على بن أبى طالب، أى تكوينه السيكولوجى الذاتى. ونبادر بالقول إن التكوين السيكولوجى هو نتاج التفاعل بين العوامل العضوية والذهنية والاجتماعية بوصفها المكونات الأساسية لتكوين شخصية الإنسان، ويضاف إليها إذا انتهينا إلى بحث السلوك، تأثير النظام الاجتماعى، أى المجتمع فى زمان معين ومكان معين. وهو ما أسميناه بالعوامل الموضوعية أو البيئة الاجتماعية.

وفيما يلى نتناول عوامل التكوين السيكولوجى:

١- العامل العضوى فى تكوين على بن أبى طالب: وهنا ننقل ما قاله الأستاذ عباس العقاد فى كتابه «عبقرية الإمام» حيث يقول: (نشأ رضى الله عنه رجلاً مكين البيان فى نشأته والكهولة، حافظًا لتكوينه المكين حتى ناهز الستين، وتدل أخباره - كما تدل صفاته - على قوة جسدية بالغة فى المتانة والصلابة، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحدًا إلا صرعه، ولم يبارز أحدًا إلا قتله»[1].

٢- العامل الذهنى - السلوكى: أما عن الصفات الرئيسية والتى يصح أن نطلق عليها العوامل «التكوينية الأولية» والتى اشتهرت عن على منذ صغره و نشأته الأولى - فإن أهمها:

أ - الشجاعة - والشجاعة النادرة، وقد ساعد على ذلك تكوينه الجسدى كما أشرنا، فكان لا يقاتل إلا قتل، ولا ينازل إلا صرع.

ب- المروءة وعدم البغى: إذ لم يبدأ أحدًا بقتال أو منازلة أو مواجهة، إلا إذا رأى ذلك أمرًا لا مفر منه، فإذا نازل أو قاتل أو واجه أحدًا، فإنه لا يبغى وإنما يقسط لا يحيد.

جـ- الوعى الفكرى والاستعداد للتعلم الدائم: فقد اشتهر عن على بن أبى طالب أنه ملك ناصية الفكر والفقه والقضاء والخطابة، وإنه هو الذى أشار على (أبى الأسود الدؤلى) بإرساء قواعد «النحو» وأن مطارحاته ومناظراته الفكرية كانت المقدمات الأولى لعلم الكلام، وإن فتاواه كانت من ركائز الفقة والقضاء.

د - عدم التكلف: فقد كان يأبى الازدواجية فى السلوك وفى المظهر، ولا يرضى إلا بالوضوح فيهما.

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية الإمام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١، ص ص٦-٧.

هـ- الزهد: بما يشمله ذلك من عدم التكالب على المنافع والمصالح العاجلة، وأبهة الملك.

٣- أما تأثير العامل الاجتماعى فى نشأة على بن أبى طالب، فنذكر الوقائع والظروف الآتية:

أ - رابطة الدم:

على بن أبى طالب هاشمى، وبنو هاشم فرع من بنى عبد مناف، وبنو عبد مناف فرع من قريش، وقريش إحدى قبائل الحجاز، والحجاز قطاع من الجزيرة العربية، ولسوف يتبين لنا فيما بعد قيمة كل جزئية من هذه الجزئيات: سواء أصله الهاشمى أو انتماؤه القرشى... إلخ.

ب - الأب والأسرة:

أبوه (أبو طالب) عم الرسول ﷺ، ولم يكن أبو طالب غنيًا، وإنما كان متوسط الحال، وكانت فترات القحط التى تنزل بقريش تصيب أبا طالب أيما إصابة وقد كان له أخوة ثلاث أكبر منه سنًا هم جعفر وعقيل وطالب.

جـ- الزمرة والصحبة:

لما أصاب القحط قريشًا أشار الرسول عليه الصلاة والسلام على عميه حمزة والعباس أن يساعدا أبا طالب فى حمل بعض أبنائه، فأخذ العباس طالبًا وأخذ حمزة جعفرًا وأخذ الرسول عليه السلام عليًا، بينما استبقى أبو طالب أحب أبنائه لديه: عقيل.

ولذا فقد نشأ على فى كنف الرسول وفى صحبته، فكان له وحده الزمرة ومجموعة الأصدقاء والرفقة، وقد كان لهذه الرفقة أثرها على تنشئة علىّ على الزهد وعدم التكلف وعلى الولوع بالتفكير والعمل الجاد.

د - إسلامه:

نشأ على كما رأينا فى كنف الرسول، فلا غرو أن أسلم وهو غلام فى نحو العاشرة أو فى السابعة - على اختلاف الرواة فى ذلك، ولذا فقد اشتهر أن عليًا قد «كرم الله وجهه» أى أنه لم يسجد لصنم قط، فهو لم يمارس قبل إسلامه عبادة الأوثان شأنه شأن سائر من أسلموا مع الرسول عليه السلام، إذ لم تكن سنه تسمح بعبادة الأصنام.

هذه هى العوامل الثلاثة: التى تمثل (الجسم والعقل والمجتمع)[1]. باعتبارها محددات التكوين السيكولوجى. ونلاحظ أن هذه العوامل الثلاثة قد اجتمعت لتفرز نوعية خاصة من نوعيات الشخصية الفردية، لدى على بن أبى طالب، وقد قدر لهذه الشخصية حين تفاعلت مع

---

(١) د. يوسف مراد، شفاء النفس - وتجدر الإشارة إلى أن يوسف مراد، وهو رائد المدرسة التكاملية فى علم النفس العربى، قد تجاهل دور النظام الاجتماعى وهو ما نحاول تلمسه هنا.

النظام الاجتماعى فيما بعد أن تنتج لنا نموذجًا خاصًا من القيادة السياسية[1].

النظام الاجتماعى فى عصر على بن ابى طالب:

ويعنينا هنا النظام الاجتماعى الذى واجهه على بن أبى طالب حينما آلت إليه مقادير الأمور ليسير دفة القيادة السياسية للدولة الإسلامية، وهو النظام الذى ساد أقطار هذه الدولة عند مقتل الخليفة الثالث عثمان فى عام ٣٥ بعد الهجرة.

ونستطيع القول إن هذا النظام الاجتماعى كان وليد عاملين:

- العامل الأول: هو مبادئ الدين الإسلامى، كما تجسدت فى القرآن والسنة وفى أعمال (الشيخين) أبى بكر وعمر.

- العامل الثانى هو ظروف الأقطار الإسلامية الجديدة، التى دخلت فى الدولة الإسلامية بالفتوح، وقد بدأ الفتح يسيرًا هينًا فى عصر أبى بكر الصديق نظرًا لانشغاله فى بداية خلافته للرسول عليه السلام بحروب الردة وتوطيد أركان الدولة بعد رحيل «القائد المؤسس».

ثم انطلق الفتح واسعًا عريضًا فى عصر عمر بن الخطاب، واستمر صدرًا فى عهد عثمان.

وبينما كان النظام الاجتماعى فى عصر الرسول وأبى بكر نظامًا عربيًا إسلاميًا خالصًا، كانت السيادة فيه نسبيًا للقيم العربية الإسلامية، أى لتلك القيم التى أتى بها الإسلام ليقضى على الولاءات القبلية والعنصرية القديمة، ولتأسيس مجتمع جديد قائم على أولوية الرسالة، بينما ذلك كذلك فإن النظام الاجتماعى منذ انتشار الفتوح فى عهد عمر، قد أخذ يشهد عنصرًا جديدًا، غربيًا على الرسالة، هو ظروف الأقطار المفتوحة التى لم تشهد مولد الرسالة «والثورة» وإنما هى مكمن «الثروة».

وقد كان عمر بن الخطاب بحزمه وزهده - العنصر الحاسم الذى عصم الدولة الإسلامية الناشئة من الانزلاق والبعد عن (ثورية) الرسالة، وحقق عمر بن الخطاب ذلك بمحاسبة الولاة والعمال على الأقاليم خاصة فى النواحى المالية والقضائية، فلا غرو أن حد عمر بن الخطاب من تأثير العوامل الطارئة على الرسالة، فحفظ للرسالة الجزء الأكبر من جوهرها باعتبارها قوة التغيير الاجتماعى.

---

(١) انظر فى الأبعاد العامة للنمط القيادى لعلى بن أبى طالب بعض المراجع الهامة وخاصة:

- عباس محمود العقاد، عبقرية الإمام.

- محمد عمارة، الفكر الاجتماعى لعلى بن أبى طالب، فى: على بن أبى طالب - نظرة عصرية جديدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٤، ص ص ٥-٤٤.

ومن المراجع العامة انظر: خالد محمد خالد، فى رحاب على، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦.

- عبدالرحمن الشرقاوى، على بن أبى طالب الجزءان الأول والثانى، مكتبة غريب، القاهرة بدون تاريخ.

وبعد عمر، جاء عثمان بن عفان، وعثمان من سراة المسلمين، ومن رؤوس «أمية». وقد اتبع عثمان سنة مخالفة إلى حد كبير لسنة عمر بن الخطاب فى سياسة الدولة الجديدة، فقد أرخى لأصحاب الثروة، ويسر للفئات المتوسطة تكوين الثروة. واعتمد على ذوى قرابته وأولى عصبته فى الأعمال والولايات، وأرخى كذلك فى محاسبة الولاة على الأمصار ومنها الأمصار ذات الثروة وخاصة فى العراق ومصر والشام.

وبذلك ساعدت سياسة عثمان بن عفان على إعطاء الغلبة للعامل الثانى، وهو ظروف الأقطار المفتوحة (الثروة) على الخاصية الرئيسية للعامل الأول: الرسالة (الثورة)، وهكذا أخذت تنشأ فى الحجاز وفى الأقطار المفتوحة فئة اجتماعية جديدة من العرب المقيمين بها: من الولاة والجند، وأخذت تنطلق لتكوين الثروة بدءًا من واقعة «السلطة» وتندمج من ثم فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية للأقطار المفتوحة ، حيث لعبت (الدولة) دورًا رئيسًا، حيث هى المالك الأصلى للأرض وحيث القرى تمثل كيانات جماعية تمارس العمل والحيازة الجماعية ضمن الملكية العامة للدولة والتى تؤول إلى الفئات المسيطرة على السلطة من خلال سياسة جباية الضرائب ونظام الالتزام وإقطاع الجند... إلخ[1].

إذن فإن اتساع الدولة، وسياسة عثمان، وتكون الفئات الاجتماعية الجديدة من العرب فى الأقطار المفتوحة، إن هذه الظروف قد أخذت تنسج صورة جديدة «للنظام الاجتماعى» فى الدولة الإسلامية: هو النظام القائم على إفساح المجال أمام فئة اجتماعية مسيطرة لتكوين الثروة، وممارسة أنماط استهلاكية تتناسب مع هذه الثروة المستجدة بالتالى.

وفى كتاب (الفتنة الكبرى.. على وبنوه) للدكتور طه حسين - يلخص هذه الظروف ذاكرًا أن اتصال العرب بالمسلمين بالأقطار المفتوحة وخاصة الفرس والروم قدم ثلاثة احتمالات:

أ) احتمال أن يفرض العرب على هذه الشعوب طبائعهم العربية أو طريقتهم فى الحياة، ولم يكن هذا ممكنًا.

ب) واحتمال أن تفرض هذه الأقطار على العرب طبائعها كاملة.. ولم يكن هذا ممكنًا أيضًا.

جـ) والاحتمال الثالث - وهو الذى تحقق - هو المنزلة المتوسطة بين الاحتمالين السابقين: وهو أن تقوم (طبيعة) جديدة لا هى بالعربية الإسلامية الخالصة ولا بالرومية الفارسية الخالصة.

---

(١) أقر فى ذلك، مثلا:

(أ) د. عبدالعزيز الدورى، مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩.

(ب) د. محمد عمارة، فجر اليقظة القومية، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧.

(جـ) أحمد صادق سعد، فى ضوء الأسلوب الآسيوى للإنتاج، تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٩.

ويزيد الدكتور طه حسين هذه الفكرة جلاء، حين يقول إن الفتح (خلق حاجات لم تكن معروفة ولا مألوفة وأظهر للعرب فنونًا من الترف وخفض العيش فأغراهم بها ودعاهم إليها ثم عودهم إياها ثم أخذهم بها أخذًا، إلا قلة قليلة جدًا استأثر الدين بها من دون الدنيا وشغلها التفكير فى الله عن التفكير فى المال والمنافع والحاجات).

ويضيف د. طه حسين: (قل إذن فى غير تردد: أن أول الظروف التى كانت تقتضى أن يخفق عليّ فى سياسته هو ضعف سلطان الدين على نفوس المحدثين من المسلمين، وتغلب سلطان الدنيا على هذه النفوس).

وهكذا فإن العرب المسلمين الفاتحين وقد وجدوا فى الأقطار المفتوحة جديدًا من مصادر الثروة فإنهم قد شكلوا فئة اجتماعية مسيطرة تتشابك مع الفئات الاجتماعية الأخرى.

ولا يعنى هذا بالطبع أن الرسالة العربية الإسلامية قد ذابت وفنيت فى عملية الفتح: فالحق أن هذه الرسالة رغم أنها قد فقدت جزءًا كبيرًا من قوة دفعها (الثورية) الأولى بوفاة قائدها الرسول عليه الصلاة والسلام والشيخين أبى بكر وعمر ومقتل أو وفاة أو شيخوخة الجزء الأكبر من الصحابة، جنبًا إلى جنب مع انحراف جزء آخر مع التيار الاجتماعى الجديد، نقول: إن هذه الرسالة رغم ذلك قد بقى لها من قوة دفعها الأولى ما مكنها من أن تستوعب - بفكرة الجهاد - الكيان الاجتماعى والثقافى للأقطار المفتوحة لتشكل منها - شيئًا فشيئًا - عبر القرون الثمانية التالية لمولد الرسالة، أمة متكاملة عربيًا ضمن الدولة، الإمبراطورية الإسلامية الجديدة، مع أنماط الحضارات القائمة فى داخل وعلى تخوم الأقطار المفتوحة.

إن التاريخ ينبئنا أن مسيرته صعودية وإن كان فى شكل حلزونى... ونلاحظ هنا أن النظام الاجتماعى القائم على «التكامل الاجتماعى النسبى» فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام والشيخين قد نجح فى إرساء دعائم (الثورة)، ثم جاء النظام الاجتماعى الجديد فحمل النقيضين: بذرة من بذور الثورة (الجهاد) جنبًا إلى جنب مع عملية (تحويل الثورة إلى دولة واسعة) من خلال قيادة المد الحضارى القومى.

وإن ذلك النظام الاجتماعى القائم على (التوزع الاجتماعى) و (تحول الثورة إلى دولة) هو ما واجهه على بن أبى طالب.

القيادة السياسية لعلى بن أبى طالب:

من التفاعل بين الشخصية، والنظام الاجتماعى، ينتج السلوك، سلوك الفرد العادى وسلوك الفرد القائد، وقد عرضنا فيما سبق لمكونات شخصية الإمام علىّ، ولمكونات النظام الاجتماعى الذى واجهه حين بدأ مباشرة قيادته السياسية.

فما خصائص القيادة السياسية لعليّ فى ضوء التفاعل بين هذين العاملين؟

.. أبرز هذه الخصائص هى «الثورية المستمرة» - وإن شئت فقل: الإصلاح الثورى، إذا جرينا على تسميته مصلحًا.

وعلى بن أبى طالب مرشح لهذه الخصيصة، بحكم شخصيته وبحكم ظروف النظام الاجتماعى معًا، فهو بحكم شخصيته شجاع وزاهد، وسابق إلى الدين وناشئ فى كنف النبى، وهو من أصل اجتماعى حافز على التغيير، وهو فقيه ومتبحر فى علوم الدين.

فإذا التقت هذه الخصائص الذاتية مع نظام اجتماعى جديد يسعى - كما رأينا إلى وإنشاء فئة اجتماعية عربية جديدة، والعدول عن مشروع (استمرار الثورة) إلى مشروع (بناء الدولة) على أكتاف هذه الفئة - فماذا عساها أن تكون النتيجة المتوقعة؟

إن النتيجة التى لا نتيجة سواها هى: الرفض والمقاومة والتواصل، أى رفض النظام الاجتماعى الجديد، ومقاومة استمراره، والسعى إلى صياغة النظام طبقًا للتواصل مع الأصول «الجذرية» التى أتى بها الرسول عليه الصلاة والسلام من الوحى وطبقها، كما عمل على تطبيقها من بعده الشيخان.

وهكذا تمثلت القيادة السياسية لعليّ بن أبى طالب فى محاولة قطع استمرارية النظام الاجتماعى المستحدث، والعمل على تحقيق استمرارية النظام الاجتماعى الأصلى الذى أنجبته ثورة الإسلام.

هذا عن الغايات، أما عن الأسلوب، فإن القيادة السياسية لعلى قد حققت انسجامًا بين الغايات وبين أسلوبها، فكان الأسلوب أبعد ما يكون عن التكالب على المصالح الجديدة، أو اتباع ذرائع الترغيب والرهيب بحسب ولاءات الأفراد والجماعات.

وبهذه الخصائص فى الغايات وفى الأسلوب، أخذ على بن أبى طالب يجرى سياسته للأمور فى نموذج متفرد للقيادة السياسية متجسدًا فى: «اتخاذ القرار السياسى» وفى «صنع السياسة» وفى «إدارة الصراع». ويمكن لنا أن نتبين ملامح الغايات والأسلوب فى قيادة على بن أبى طالب إذا استعرضنا باختصار سياسة على فى كل من هذه المجالات الثلاثة:

أولاً: فى ميدان اتخاذ القرار السياسى:

لقد كان أول اختبار واجهه على بن أبى طالب، هو اختبار القيادة ذاتها. فقد واجه المجتمع العربى والإسلامى بعد مقتل عثمان موقفًا عصيبًا، فمنذ أحاط المؤتمرون من مصر والبصرة بعثمان وهم عدة آلاف مدججة بالسلاح، وقتلوه، ظلت المدينة عدة أيام بلا خليفة، وقد فرض الثائرون الرعب والخوف على أهل المدينة - من جهة - بينما عجز أولئك الثائرون عن اختيار

خليفة جديد من جهة أخرى، حيث تأبى عليهم طلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمر وكذلك على بن أبى طالب.

وقد كان على بن أبى طالب فى فترة «الفتنة» التى أحاطت بالمدينة قبيل قتل عثمان يأخذ موقف الحريص على مجرى العدالة الاجتماعية وقمع استغلال الولاة، والحرص على حياة خليفة رسول الله، فى نفس الوقت، فلما قتل عثمان اتجه الثائرون إلى علىّ فكان ينأى، حتى سدت المنافذ أمام الثائرين وأيقنوا أنهم إن لم يولوا خليفة على المسلمين قبل رحيلهم من المدينة فإنهم سيهلكون لا محالة. فحينئذ أقبلوا على علىّ وأقبل الأشتر النخعى (من قادتهم) فبايع عليًا ثم تبعه الناس، وهكذا كان قرار على بقبول الخلافة (من القادة) قرارًا سياسيًا تمثلت فيه كل المعانى التى ذكرناها عن نموذجه فى القيادة فهو يأباها حين تثور شجاعته فى الحق إزاء مقتل خليفة رسول الله، وهو يقبلها حين تثور نوازع الحفاظ على رسالة (الثورة) والحفاظ على المجتمع من شواجر الفتنة والفوضى، ثم هو حين يقبلها يأبى - بحكم ما جبل عليه من شجاعة واستقامة - إلا أن تكون البيعة من الجميع للخليفة الذى ارتضته جماهير المسلمين فى المدينة ومكه وممثلو الأمصار: ولذلك فقد كان حريصًا على أن يبايع له كل من طلحة والزبير إذ كان يعلم من أمرهما أنهما طامعان فى الإمارة، وكان حريصًا على أن يبايع له أهل العراق، وكان حريصًا على أن يبايعه معاوية بن أبى سفيان والى الشام منذ عمرو الذى كان يتأبّى.

وهكذا، فبعد أن اتخذ قراره السياسى بقبول البيعة، أخذ قرارًا سياسيًا ثانيًا بضرورة تحقق الإجماع فى هذه البيعة حتى لو كره خصومه، أى حتى لو اضطر أن يستكرههم على المبايعة استكراها، ومن ثم فقد دخل فى دائرة إدارة الصراع مع خصومه منذ تلك اللحظة التى بدأ فيها مباشرة مهمة القيادة.

ثانيًا: صنع السياسة:

ونقصد هنا سياسة على للرعية والولاة. ولن نفصل فى هذا الجانب فهو مذكور فى الكتب السيارة وإنما يهمنا أن نقول أن هذه السياسة كان قوامها الاشتداد على الولاة كدأب عمر بن الخطاب فى محاسبة الولاة، ثم توزيع جميع الفئ فى بيت المال على المرافق والمحتاجين، على خلاف فى ذلك مع سنة عمر الذى كان يوفر شيئًا فى بيت المال لطوارئ الأيام. كذلك نذكر عدل على بن أبى طالب، وتطبيق هذا العدل على نفسه فى مواجهة الرعية، وعلى أفراد المسلمين فيما بين بعضهم البعض، فكان ذلك نموذجًا للمصلح الذى يرعى (الرسالة) الثورية فى ولايته أمر المسلمين.

ثالثًا : إدارة الصراع:

لقد اندمج اتخاذ القرار كما قلنا فى إدارة الصراع، فإذا القرار السياسى العلوى منذ البداية قرار فى الصراع، والقرارات فى إدارة الصراع إما أن تكون قرار حسم، أو قرار تأجيل[1].

من واقع استعراضنا لشخصيته، والظروف الاجتماعية التى جبهت هذه الشخصية، لا بد أن نستنتج أن القرار الذى يرتضيه على بن أبى طالب هو قرار الحسم لا قرار التأجيل.

ولعل اندفاع الإمام فى تنفيذ قرار الحسم، كان يجد أساسه فى إدراكه لطبيعة الصراع الاجتماعى الذى شجر فى الدولة الإسلامية الوليدة والذى تنتظره منه فى المستقبل رياح أشد وأعتى. فلربما أدرك على بن أبى طالب أن ذلك الصراع - إذا استخدمنا المصطلحات المعاصرة - صراع بين (الثورة) و(الثورة المضادة): فهو صراع مصيرى، بل هو صراع بين نموذجين من نماذج الحضارة: النموذج العربى الإسلامى الأصيل و«الأصلى»، القائم على تحقيق التكافل الاجتماعى والحيلولة دون اشتداد الاستغلال الطبقى والاجتماعى، ثم النموذج والقائم على الاستزادة من الثروات المادية.

وفى الصراع الحضارى كما يقول حامد ربيع، هناك ثلاثة أنواع من الحلول[2]: إما الصدام وإما التعايش وإما الاستيعاب، فالصدام يتضمن تصفية أحد الطرفين للآخر، والتعايش يتضمن قبولهما المتبادل للوجود، والاستيعاب يتضمن هضم أحدهما للآخر حضاريًا. وقد أدرك على بن أبى طالب أن صراعه قادم لا شك فيه، ضد قوى الارتداد بالإسلام، أى بالنموذج الحضارى العربى الإسلامى، إلى حيث تسود قيم النموذج الحضارى النقيض.

وفى نفس الوقت كانت القوى صاحبة المصلحة فى النظام الاجتماعى الطبقى المستحدث مستعدة لأن تقاتل من دون مصالحها الجديدة، حتى لو فنى منها الكثير، ولم تكن هذه القوى فى حاجة إلى أن تجهد نفسها بحثًا عن رمز اجتماعى ودينى تختفى من ورائه، فقد أمدتها الأحداث برمز أى رمز هو القصاص من قتلة عثمان، باعتبار هذا القصاص قضية دينية (ضرورة إنفاذ حدود الله وأن من يعطلها كافر يحل قتله) وقضية اجتماعية وأخلاقية أيضًا كما هو معروف.

وهكذا أخذ يتواجه معسكران: معسكر (الثورة الاجتماعية)، إذا صح هذا التعبير، ويقوده على بن أبى طالب، وقد عمل فى اتجاه ما آمن به وما بويع عليه، فعزل عمال عثمان على

(١) د. حامد ربيع: من يحكم فى تل أبيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٥، ص٦٣.

(٢) د. حامد ربيع: تأملات فى الصراع العربى - الإسرائيلى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٦، وانظر تعليقنا عليه فى: الثقافة العربية، طرابلس، ١٩٧٦، ص ص ١٢٩-١٣١.

البصرة ومصر واليمن ومكه وكذلك عزل معاوية - وكان هذا الموقف منسجمًا بطبيعة الحال مع إنكار (عليّ) للجور والعسف الذى جرى به هؤلاء العمال، وإنكاره للعصبية التى أتت بمعظمهم أصلاً وخاصة معاوية بن أبى سفيان، ابن عم عثمان الخليفة المقتول.

وأيضًا فقد حرص على أن يمسك بطلحة والزبير فى المدينة جريًا على سنة (عمر) فى إبقاء أصحاب رسول الله فى المدينة طبقًا لما أشار عليه أبو بكر فى ذلك، حتى لا يدلوا بسابق إسلامهم ويثيروا فتنًا، ثم سمح (عليّ) لطلحة وزبير أن يرحلا إلى مكه للعمرة.

وعلى الجانب الآخر كان هناك المعسكر المعادى والذى يتزعمه معاوية فى الشام والذى رفض مبايعة الخليفة الجديد، وأعلن عزمه على القصاص وأخذ الناس يلتفون حول قميص عثمان فى دمشق ويبكون. وفى مكه ذاتها أخذ طلحة والزبير يثيران الناس وكانت هناك عائشة زوج الرسول ﷺ، فعمل الثلاثة على إثارة جمهور المسلمين فى مكه ضد الخليفة الجديد والمطالبة بدم عثمان... وكانت عائشة رضى الله عنها تتقم على علىّ بن أبى طالب لأسباب عدة يرويها رواة السنة: فمن ذلك ما قيل من أنه أشار على النبى بتطليق عائشة بعد حادثة الإفك وكذلك زواجه من أسماء الخثعمية زوج أبى بكر وأم محمد بن أبى بكر وأيضًا إنجابه النسل الوحيد الباقى للرسول من فاطمة فى حين كانت عائشةعقيمًا، كذلك يشار إلى تردد (عليّ) فى البيعة لأبيها أبى بكر نظرًا لأنه وعمه العباس كانا يريان الخلافة حقًا لبنى هاشم بعد الرسول ﷺ وأخيرًا فلعل عائشة كانت تود لو بويع طلحة وهو من قبيلة «تيم» التى تنتمى إليها وأبوها أبو بكر.

وقد تعجل طلحة وزبير وعائشة مواجهة على بن أبى طالب، بينما كان يتأهب لحمل معاوية على البيعة ولو بالقتال، وتوجه طلحة وزبير وعائشة إلى البصرة يجمعون الناس ويحملون لواء التمرد على الإمام.

موقعة الجمل:

ذهب طلحة وزبير وعائشة فى جند كثيف إلى البصرة، وجىء بعائشة على جملها فخطبت فى الناس - كما يقول الدكتور طه حسين فى «الفتنة الكبرى» - وأخذت تقول: [غضبنا لكم من سوط عثمان وعصاه أفلا نغضب لعثمان من السيف؟ ألا وإن خليفتكم قد قتل مظلومًا، أنكرنا عليه أشياء وعاتبناه فيها فأعتب وتاب إلى الله، وما يطلب من المسلم إن أخطأ، أكثر من أن يتوب إلى الله، ولكن أعداءه سطوا عليه فقتلوه واستحلوا حرمًا ثلاثًا: حرمة الدم وحرمة الشهر الحرام وحرمة البلد الحرام].

وكثيرة هى الزوايا التى يمكن أن نتناول من خلالها «واقعة الجمل» وغيرها من الواقعات،

غير أن ما يهمنا فى سياق بحثنا الحالى، هو النظر أولاً من زاوية القيادة السياسية لعلى بن أبى طالب، أى السلوك القيادى العلوى فى هذا الموقف.

ويهمنا هنا أن نوضح ما يلى:

١) عزم على بن أبى طالب على ملاقاة المتمردين الذاهبين إلى البصرة، ولذلك فقد عبأ جنده لملاقاة القوم فى البصرة، وكان ذلك انطلاقًا من إيمانه بأنه من بايع فلا بد أن يفى بواجبات البيعة، وقد بايعه طلحة والزبير.

٢) إن عليًا كان حريصًا على ألا يبادئهم بالعدوان، بل وكان حريصًا على ألا يقع القتال، ولذلك فقد بادأهم بالمناظرة والحجة، وهكذا أرسل إليهم أحد صحابة رسول الله لمناقشتهم وهو القينقاع بن عمر - ولما أن وقعت الواقعة خرج (عليّ) نفسه فدعا طلحة والزبير ليكلمهما، وأخذ فى مناقشتهما حول جدوى القتال، وتروى بعض المصادر أن الزبير استجاب فلم يشترك فى الواقعة، وإن كان قد قتل فى طريقه منها، ورغم عناد طلحة وإصراره على القتال، فقد حاول (عليّ) محاولة أخيرة للنصح فكان أن أخرج أحد الشباب من أهل الكعبة يحمل مصحفًا وأخذ يدعو إلى الفصل ما بين الصفين المتواجهين، فقتله أنصار الجمل، وهنا أدرك (عليّ) أن خصومه جادون فى القتال ماضون فيه فقال: «الآن طاب الضراب».

٣) انتصر على بن أبى طالب فى الواقعة أول النهار، ورغم ذلك عاد أصحاب طلحة والزبير مرة أخرى ومعهم عائشة فى «الهودج» فوق جملها تحمس الناس، وقد ثبت على وأصحابه، حتى هزموا خصمهم مرة أخرى فى آخر النهار.

٤) رغم الانتصار المبين لعلى بن أبى طالب فإنه لم ينتقم من أحد من خصومه، بل لقد كرم عائشة وردها إلى مكة مع نفر من الرجال والنساء، وقد اكتفى من أهل البصرة بالمبايعة وترك عليهم ابن عمه عبدالله بن عباس وارتحل إلى الكوفة.

العزم والحزم.. التفوق على الخصوم، الشجاعة والفروسية فى القتال والمناجزة، الإصرار على الحق ومن ثم على البيعة، تلك هى السمات القيادية العلوية التى أبرزتها واقعة الجمل.

ولكن المزيد من خصائص القيادة السياسية العلوية سوف تتضح لنا من تفحص واقعة أخرى كانت هى الواقعة الفاصلة فى حياة على بن أبى طالب بأسرها، هى واقعة صفين.

واقعة صفين:

رأينا من إدارة الصراع بين على بن أبى طالب وخصومه الذين رفضوا البيعة وطالبوا بدم عثمان والذين كانت تدفعهم فى الحقيقة مخاوفهم من صرامة الخليفة الجديد وتدفعهم الرغبة فى الولاية (رغبة طلحة فى ولاية الكوفة ورغبة الزبير فى البصرة)، نقول: رأينا من

إدارة الصراع بعض خصائص على، ولكن جماع خصائص هذه القيادة يتضح لنا فى إدارة الصراع مع معاوية بن أبى سفيان، زعيم ما أسميناه بالثورة المضادة فى الدولة الإسلامية الجديدة، والقابع فى الشام منذ عمر.

(١) وأول ما يصادفنا من السلوك القيادى لعلى بن أبى طالب هو إصراره على مقاومة عصيان معاوية بن أبى سفان والقضاء عليه، حتى تستقيم للخلافة سلطتها فتستطيع أن تمارس استئناف سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام والشيخين فى سياسة المجتمع الإسلامى الجديد.

وإننا لا نبرئ عليًا من التوازع البشرية الأولية، فلا ريب أنه كان يعتقد أنه أحق بالخلافة من أبى بكر ومن عمر ومن عثمان، لما كان يراه من أنه من بنى هاشم ولأنه ابن عم الرسول ولأنه زوج ابنته فاطمة، ووالد الحسن والحسين، وهو من هو فى علمه وتفقهه فى الدين، ولذلك فإن إصراره على أن يستقيم له الأمر بالبيعة من الجميع ولو باستخدام العنف ضد الكارهين لهذه البيعة إنما يتداخل فيه جانب شخصى لا شك فيه. ولسنا نعتقد أن وجود العنصر الشخصى فى أية قضية، مما يحمل فى حد ذاته قرينة عليها بالفساد، ولكن إذا تطابق هذا العنصر الشخصى مع مقتضيات الرسالة (الثورية)، فلا تثريب على صاحب الأمر أن يطالب بما هو أهل له.

وعلى هذا النحو من الإيمان المزدوج: إيمانه بحقه الشخصى فى الخلافة، وإيمانه بضرورات إنفاذ رسالة الله التى جسدها محمد عليه الصلاة والسلام، سار (عليّ) ليحمل معاوية على الجادة.

(٢) ولم يبدأ على بن أبى طالب مع ذلك بالعدوان على معاوية، وإنما أرسل إليه من يدعوه للبيعة، وهو رجل من أصحاب النبى، هو جرير بن عبدالله البجلى، ولكنه لم يظفر من معاوية بشىء، وإن كان معاوية قد أرسل إلى (عليّ) فيما بعد رسالة مع أبى مسلم عبدالرحمن، وفيها من شدة اللهجة ما يحمل على الظن أن معاوية لم يقصد بها فتح باب الحوار وإنما سد الذرائع أمام مثل ذلك الحوار والتمهيد للمواجهة. فحينذاك، وحينذاك فقط، استيقن على بن أبى طالب أنه قد استنفد الوسائل (السلمية) فى صدامه مع معاوية، وأنه لا يبقى أمامه إلا القتال، فوجه رجاله إلى (الحرب) والاستعداد للقتال، وكذلك فعل معاوية وسبق عليًا إلى «صفين».

(٣) وهكذا دخل على بن أبى طالب واقعتين حربيتين بعد أقل من عام من توليه الخلافة: فقد كانت واقعة الجمل بعد ستة شهور من خلافته، ومكث بعدها شهورًا أربع فى الكوفة يحضر للقاء معاوية فكان الدخول إلى صفين بعد عشرة شهور من ولايته إمارة المؤمنين.

وقد ظل الجيشان قرابة شهرين يتواجهان دون قتال. وقد استبسل رجال على فى القتال

وكان منهم عمار بن ياسر الذى قال له الرسول عليه الصلاة والسلام: (ويحك يا ابن سمية - تقتلك الفئة الباغية). وقد حمل (عليّ) وأصحابه على معاوية حتى كاد ينهزم.

وهذه البسالة والشجاعة والفروسية والعناد فى الحق هى من أبرز خصائص قيادة على.

(٤) غير أن هناك حقيقة من حقائق «صفين»، بل لعلها أهم حقائقها على وجه الإطلاق، تبرز لنا خاصية جديدة من خواص على بن أبى طالب قائدًا سياسيًا، تلك هى واقعة التحكيم. فبينما كان القتال مشتدًا كأقصى ما يكون الاشتداد، وبينما يحمل الإمام ورجاله على معاوية، حتى همَّ معاوية أن يفر لولا أن تذكر قول الشاعر:

أبت لى همتى وأبى بلائى وأخذى الحق بالثمن الربيحِ
لأدفع عن مآثر صالحاتٍ وأحمى بَعْدُ عن عِرضٍ صحيحِ

- بينما ذلك، إذا بالمصاحف ترفع من أهل الشام، وتدعو أغلبية جيش (عليّ) عليًا إلى قبول ما يعرضه أهل الشام، فيخشى (عليّ) مخالفة الأغلبية فينقسم الجيش، ويقبل على عرض معاوية ويرسل إليه من يسأله عن مقصده، فيقول معاوية: أردت أن نختار منا رجلاً وتختارون منكم رجلاً وتأمرهما أن يحكما بما فى كتاب الله فيما شجر بيننا من خلاف.

وقد ألحت الكثرة من رجال (عليّ) عليه فى قبول التحكيم، وكان أكثر الناس تحمسًا «الأشعث بن قيس الكندى»، وقد أسلم متأخرًا وتولى فى عهد عثمان على جزء من أرض فارس، وقد عزله على بن أبى طالب عن ولايته، ثم استصحبه واستصلحه، كما يقول الدكتور طه حسين فى «الفتنة الكبرى»، وكان الأشعث من دواهى العرب، وقد قابل معاوية موفدًا من قبل على، ويشك بعض المؤرخين أنه اتفق مع معاوية على تدبير نهاية الإمام.

وبعد أن قبل (عليّ) التحكيم، جاء دور الأشعث ومعه كثيرون، فأكرهوه على أن يختار أبا موسى الأشعرى بينما كان يرغب فى ابن عمه عبدالله بن عباس، والمعروف أن أبا موسى لم يكن من أولياء على بن أبى طالب وإنما بايعه حين كان واليًا على الكوفة بعد لأى وتردد يشوبه الكثير من التخذيل ضد على، وذلك بينما اتفق أهل الشام على اختيار داهية العرب عمرو بن العاص والى مصر فى عهد عمر، والذى عزله عثمان، والذى ظلت تراوده الأحلام بالعودة إلى مصر بأى ثمن - ولذلك انضم إلى معاوية رغم أنه كان من المحرضين على الخليفة المقتول.

وهكذا بينما اختار (عليّ) رجلاً من غير خلصائه، فإن معاوية اختار واحدًا من بين أصحابه ودهاته. وقد التقى الحكمان وكتبا صحيفة [بأن هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان، وإنا عند حكم الله، وبيننا كتاب الله فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته، والحكمان عبدالله بن قيس (أبو موسى الأشعرى) وعمرو بن العاص، وأخذنا عليهما عهد الله وميثاقه ليحكما بما وجدا فى كتاب الله نصًا فما لم يجداه فى كتاب الله عملا فيه

بالقسمة الجامعة غير المفرقة، وأخذا من على ومعاوية ومن الجندين كليهما عهد الله ليقبلن ما قضيا به عليهما].

وبعد يومين من كتابة هذه الصحيفة أخذ (علي) ورجاله فى الرجوع إلى الكوفة، ولكن ما بين قابل للتحكيم وما بين رافض للتحكيم ويرى أن الحكم لله وحده وأن النزول على حكم الله هو بقتال الفئة الباغية (معاوية) حتى تفئ إلى أمر الله، كما يقول القرآن.. وهؤلاء هم الفئة التى صارت تسمى فى التاريخ الإسلامى «الخوارج».

وقد اجتمع الحكمان وطال تفاوضهما واتفقا فيما بينهما - قبل أن يخرجا برأيهما النهائى إلى الناس - على أن يخلعا عليًا ومعاوية، ثم يترك الأمر شورى للمسلمين يختارون خليفتهم كما يشاؤون. ولكن عند إعلان الرأى النهائى هذا على الناس حدثت الطامة الكبرى - أو المكيدة التى أوجدها داهية العرب عمرو بن العاص: فقد قدم عمرو بن العاص أبا موسى: فقام هذا وأعلن أنهما اتفقا على خلع معاوية و(علي) وردّ الأمر شورى بين المسلمين، وبعد ذلك قام عمرو بن العاص فقال: إن هذا قد خلع صاحبه، وأنا أخلعه مثله ولكنى أثبت صاحبى.

هنا اعتبر أهل الشام أن عليًا قد خلع من إمارة المؤمنين وأنها صارت إلى معاوية بن أبى سفيان وعادوا إلى الشام وسلموا عليه أميرًا للمؤمنين، فصارت النتيجة الواضحة للتحكيم على هذا النحو، المعول الأكبر فى هدم صرح الخلافة العلوية وإعطاء سند (الشرعية القانونية) لمعاوية، رغم أن (الشرعية السياسية) لم تزل فى جانب الإمام.

وبعد هذا العرض المسهب لما حدث فى التحكيم، نريد أن نصل إلى خصيصة هامة من خصائص القيادة السياسية لعلى بن أبى طالب، لم تقدر لها الظروف أن تبرز فيما سبق من أحداث، هذه الخصيصة وهى «القصور التنظيمى» للقيادة السياسية، وتعود فى رأينا إلى سببين متكاملين:

السبب الأول: أن (على بن أبى طالب) فى رأينا كان تقيًا وفارسًا وفقيهًا ولكن لم يكن منظمًا Organizer. والقائد المتفوق كمنظم هو الذى يمتلك براعة استثنائية فى رسم الاستراتيجية والتكتيك - ليس فى سير الحرب ذاتها كعملية عسكرية فقط وإنما فى سير عملية الصراع السياسى على الإجمال. وقد كان قبول على بن أبى طالب للتحكيم وقبوله لأبى موسى الأشعرى حكمًا، هو «الخطأ القاتل» بكل معنى الكلمة.

ولا نبالغ إذا قلنا إن هذه الواقعة المزدوجة (التحكيم واختيار أبى موسى) هى التى قررت مصير على بن أبى طالب، ليس الإمام فقط، وإنما مصيره العضوى الجسدى نفسه فيما بعد.

وقد يقال أن عليًا لم يكن أمامه الخيار فى ذلك، فقد وقفت الكثرة من رجاله إلى جوار التحكيم وإلى جوار أبى موسى، فلم يكن بدّ من أن يسير فيما تراه الكثرة. ولكننا هنا نجد

ملمحًا آخر من ملامح (القصور التنظيمى) لدى على بن أبى طالب، قائدًا سياسيًا فهو قد ساس رجاله بالتقوى والعدل واليسر فى الدين - وهو ما سبقه إليه عمر بن الخطاب - ولكنه افتقد الشدة التى تميز بها عمر، فقد كان ابن الخطاب شديدًا على رجاله وولاته حتى من صحابة رسول الله، فكان يجمع إلى تقواه وورعه وعدله فى الدين، شدة وعزمًا لا يلين. أما على بن أبى طالب فإنه كان يفتقد هذه الشدة وهذا الحزم تجاه - القواعد - وكان يجنح إلى رأيها فيخسر قضيته، بل وكان يفتقد هذه الشدة وهذا الحزم، وهو الأمر الأخطر، تجاه (قيادات الصف الثانى) من أمثال الأشعث بن قيس الكندى.

ونتيجة لهذا (القصور التنظيمى) فى القيادة السياسية لعلى بن أبى طالب، فإن الثورة الاجتماعية - معسكر الثورة فى الدولة الإسلامية - قد افتقدت المقوم الرئيسى لنجاحها وهو «الانضباط التنظيمى». كانت قوى الثورة تتمتع (بالديمقراطية) فى مواجهة الإمام - إذا صح هذا التعبير - ولكن هذا الإمام لم يضبطها (بالمركزية)، اللازمة.

هذا هو السبب الأول، وهو يرجع إلى العامل الذاتى (الشخصية القيادية العلوية).

أما السبب الثانى لظاهرة القصور التنظيمى للقيادة السياسية لعلى بن أبى طالب، فهو يكمن فى العوامل الموضوعية أى العوامل المتعلقة بتطور (الثورة) ذاتها كعملية موضوعية مستقلة عن قائدها المشخص، فلم يكن الأمر إذن راجعًا فقط إلى مجرد نقص معين فى بعض القدرات الذاتية لعلى، وإنما كان يرجع بالإضافة إلى ذلك إلى عوامل أخرى، نبرز أهمها فيما يتعلق بالمقارنة بين (علي) ومعاوية فيما يلى:

١- إن عليًا قد واجه قيادة المجتمع الإسلامى وقد ترهلت قواه الثورية التى خاضت غمار التغيير مع الرسول عليه الصلاة والسلام وأبى بكر وعمر والصدر الأول من خلافة عثمان على النحو الآتى:

أ) إن مقتل عثمان بن عفان فى حد ذاته قد أثار انقسامًا فى المجتمع الإسلامى الوليد، سواء لأسباب حقيقية أو لأسباب رمزية، وألقى على كتف الإمام الجديد بأعباء مضاعفة فيلزم رأب الصدع حيث لا يمكن رأب الصدع وخاصة مع من اتخذوا مقتل عثمان ذريعة لبلوغ (حاجة فى نفس يعقوب).

ب) اعتزال جماعة من خيرة الصحابة أمر الفتنة، واعتزالهم أمور الخلافة، فلم يكونوا عونًا لعلى بن أبى طالب، ومن أبرزهم سعد بن أبى وقاص، وعبدالله بن عمر بن الخطاب.

جـ) طمع جماعة من صحابة رسول الله، فى الخلافة أو على الأقل فى ولاية الأمصار المفتوحة، وخاصة طلحة والزبير، وقد رأينا أمرهما وكذلك أمر عائشة زوج الرسول عليه السلام وابنة أبى بكر الصّديق.

د) ثم هناك مجموعات المتمردين التى ائتمرت بعثمان بن عفان وقتلته وهى المجموعات التى نقمت على سيرة عثمان بن عفان فى مصر والكوفة والبصرة خاصة. وهذه المجموعات لم تكن مدفوعة بإيمان عقائدى كامل ولا تنظيم وقيادة ثورية معترف بها، وإنما كانت تسعى إلى تغيير الواقع السياسى والاجتماعى العثمانى والأموى، انطلاقًا من رغبتها فى تغيير أوضاعها الفردية والفئوية ذاتها، ومن هنا فقد صارت عبئًا على (علي) بن أبى طالب، وخاصة بعد أن أدلت عليه باختيارها له ومبايعتها إياه على نحو ما رأينا.

هـ) ويضاف إلى ما سبق، أن قوى التغيير الاجتماعى كانت تضم فئة من المجاهدين المؤمنين (مثل عمار بن ياسر) ومجموعة من الصحابة و حفاظ القرآن وقرائهو وكانت تحتكم إلى القرآن فى كل موقف ولا ترضى من إمام المسلمين إلا ما تراه موافقًا للعقيدة فى كلياتها وجزئياتها، خاصة وقد شهدت رسول الله ﷺ وخاضت حروبه وغزواته ومن بعده خلفاءه، فكان يتحتم على علىّ بن أبى طالب أن يحسن معاملتها وأن يراعى مشاعرها أيما مراعاة.

و) فإذا أضفنا عاملاً طبيعيًا فى النهاية، وهو انتهاء قيادات الثائرين بالوفاة أو القتل، لاتضحت فى الحقيقة أمامنا صعوبة موقف على بن أبى طالب. فأولئك الثائرون – كما يقول طه حسين – قتلوا فى سبيل هذه الثورة قبل أن يتموا تثبيتها: قتل حكم بن جبله فى البصرة قبل أن تقع موقعة الجمل، وقتل زميله البصرى حروجى بن زهير فى النهروان. وقتل محمد بن أبى بكر وكنانة بن بشر فى مصر، ومحمد بن أبى حذيفة فى الشام، ومات الاشتر فى طريقه إلى مصر، وقتل عمار بن ياسر فى صفين.

٢- أما معاوية بن أبى سفيان – خصم (علي) فى الصراع المصيرى – فقد ساعدته الظروف الذاتية والموضوعية فأحسنت مساعدتها: ففى الجانب الذاتى نجد أن معاوية كان يمتلك الصفة التى يفتقدها (علي) بالذات: فقد كان معاوية منظمًا organizer من الطراز الأول، بارعًا فى رسم الاستراتيجية والتكتيك. شديد اللين والمرونة حين تجب سياسة اللين والمرونة، عنيف غاية العنف إزاء رجاله وقيادات (الصف الثانى) إذا لم يكن بد من العنف، وكان إلى هذا كله داهية من دهاة العرب، وأعانه داهية وناب من أنياب العرب هو عمرو بن العاص.

لذلك توفرت لمعاوية القدرة على التخطيط والتنظيم لا يلوى على شىء، فإذا أدركنا أن معاوية لم يكن يقف عند حدود الالتزام العقيدى الدينى وإنما كان يسعى إلى (ضبط) صفوفه بالترغيب الدنيوى المصلحى تارة وبالترهيب البتار تارة أخرى، دون نظر إلى مدى اتفاق الترغيب والترهيب مع أحكام الدين وضرورة التقوى فى المال والمعاملات. لتجلت أمامنا سيرة معاوية فى الصراع.

وفى الجانب الموضوعى فإن معاوية بن أبى سفيان لم يكن مجرد منظم وداهية ورجل

سلطة. وإنما هو قبل ذلك وبعد ذلك شخص قد تهيأ له مسرح الأحداث فى المجتمع الإسلامى الجديد: مسرح أخذت تتشب فيه المصالح (الدنيوية) أظافرها فى أعناق فئات اجتماعية جديدة من العرب، وهو ما سبق أن استعرضناه فى بحثنا للنظام الاجتماعى آنئذ، وإذن فقد كان معاوية (رجل النظام الاجتماعى المستحدث)، رجل (الثورة المضادة) كما قلنا.

هذه هى العوامل الذاتية والموضوعية وراء ظاهرة «القصور التنظيمى» فى القيادة السياسية، وهى الظاهرة التى أوضحتها أزمة الصراع بين على ومعاوية وخاصة أثناء، وفى أعقاب، موقعة «صفين» من خلال التحكيم. وهذه الظاهرة لا تستوعب كافة جوانب القيادة السياسية العلوية، بل هى فى حقيقتها تلوين نوعى لنموذج (القائد الثورى أو المصلح Reformer) . إن عليًا إذن هو قائد (ثورى) أو مصلح ولكن مع تكوين خاص لقدرته التنظيمية، وهذا الجانب الخاص بالقدرة التنظيمية يمثل وجه (الاختلاف) لعليّ بن أبى طالب - كقيادة مشخصة معينة - عن النموذج التجريبى العام للقائد المصلح. وقد برز كل من الجانب العام والجانب الخاص هذان، فى قيادة (علي) لجولات الصراع الأخرى، وأهمها جولة الصراع بين (علي) والخوارج والتى أخذت طابعها المتبلور فى موقعة «النهروان».

موقعة النهروان:

حين بلغ عليًا أمر ما انتهى إليه الحكمان، خطب فى الناس، ذاكرًا [أن الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا حكم الكتاب وراء ظهريهما وارتأيا الرأى من قبل نفسيهما، فأماتا ما أحيا القرآن وأحييا ما أمات القرآن]، ودعا الناس إلى الجهاد وأخذ يتأهب لقتال أهل الشام.

وكان (علي) بعد موقعة «صفين» قد ساءه موقف أولئك المنادين بالحاكمية أو «المحكّمة» أو من صاروا يسمون فما بعد «بالخوارج»، والذين اعتزلوا فى (حروراء) وكان عددهم نحو اثنى عشر ألفًا. وأراد على بن أبى طالب أن يحقق «وحدة الصف» فأرسل إليهم عبدالله بن عباس ليحاورهم ويقنعهم، ثم ذهب بنفسه إليهم وحاورهم وأقنعهم بأن قبول مبدأ التحكيم ليس فيه مخالفة لأمر الله، فرجعوا إلى الكوفة وهم يعتقدون أن عليًا قد أقلع عن فكرة الحكومة (التحكيم)، فلما اتضح فيما بعد أن عليًا لم يقلع عن التحكيم وأنه يمنح الحكمين تأييده خرجوا عليه مرة أخرى.

ولما ظهر أمر التحكيم ورفض (علي) وتأهب للمسير لقتال معاوية، كتب إليهم يدعوهم إلى الانضمام إليه لحرب أهل الشام فأنكروا عليه ذلك ذاكرين له أنه خالفهم حين كانوا يدعون من الأصل باستمرار القتال، وأخذوا يقطعون الطرق على رجال (علي) ويفسدون فى الأرض - من

وجهة نظره - فلما أخذ يغذ السير إلى الشام أقنعه رجاله بضرورة ملاقاة الخوارج لتسوية الحساب معهم قبل قتال معاوية، فسار بهم إلى «النهروان».

ونكاد نرى فى وقائع «النهروان» الخصائص الرئيسية لقيادة على بن أبى طالب كما بسطناها فيما سبق وذلك على النحو التالى:

١- الإقدام والشجاعة، وذلك باتخاذ القرار بملاقاة الخوارج، رغم تأهبه لقتال معاوية فى الشام.

٢- وفى قرار قتال الخوارج جانب آخر، هو انصياع (علي) لرأى الكثرة من أصحابه، وهم الذين أغروه بالتوجه لملاقاة الخوارج، فهنا نجد أن عليًا لم يحسن التخطيط التنظيمى لعلاقته الصراعية مع الخوارج، فاندفع إلى حربهم دون تحسب لكافة احتمالات المستقبل.

٣- ومع ذلك فلم ينس علىٌ نفسه، فهو لم يبدأ قتالهم إلا بعد أن أعذرهم وأنذرهم وأخذ يعظهم بالكتابة أو بالخطابة حتى عاد كثير من الخوارج إلى الكوفة، ولم يبق منهم إلا نحو ثلاثة آلاف. ولم يبدأ (علي) بالقتال إلا حين بادره هؤلاء الخوارج (الطامعون فى الجنة) بالقتال فاستبسلوا أيّما استبسال، ولكن عليًا وجيشه حمل عليهم حملة شديدة حتى أفناهم إلى آخر رجل.

٤- ورغم الانتصار المبين لعلى، فقد اتضح أنه لم يرسم الخطة الصحيحة لمعالجة أمر الخوارج. فهو قد هزمهم وقتلهم ولكن قتلهم وهزيمتهم قد ترك أخاديد فى جبين الجبهة العلوية: فهاهم أبناء الكوفة والبصرة قد قتلوا بعضهم البعض فى النهروان فى معسكر (علي) والخوارج معًا، وما من رجل إلا وقتل أباه او أخاه أو أحد قرابته - فخيم اليأس والحزن على معسكر (علي) رغم النصر. فلما عاد رجاله إلى معسكر «النخيلة» قرب الكوفة أمرهم بمعاودة الاستعداد لقتال معاوية، وأخذ هؤلاء الرجال يتسللون خارجين إلى الكوفة مرة أخرى، عازمين على عدم معاودة القتال، [وكان معاوية قد بلغه نهوض (علي) إلى الشام، فنهض فى أصحابه يسبق إلى صفين، ولكن عليًا لم يقدم، فلما عرف معاوية ما كان من أمره مع الخوارج ومن رجوعه إلى الكوفة وتخاذل أصحابه عن القتال عاد إلى دمشق موفورًا دون أن يلقى كيدًا][1].

بذلك تناولنا عملية إدارة الصراع، من جانب القيادة السياسية لعلى بن أبى طالب، وقد بدأ بإدارة الصراع ضد من أسماهم بالناكثين للبيعة: طلحة والزبير فى موقعة الجمل، ثم إدارة الصراع ضد من أسماهم القاسطين - أو الظالمين - من أهل الشام وخاصة من خلال موقعة صفين ثم أخيرًا إدارة الصراع ضد الخوارج أو من أسماهم بالمارقين - وخاصة من خلال موقعة النهروان.

---

(١) د. طه حسين، الفتنة الكبرى، على وبنوه، دار المعارف، ١٩٧٥. ص١٠٧.

ولكننا رأينا أن الظروف الذاتية والظروف الموضوعية قد راكمت ظاهرة (القصور التنظيمى) فى قيادته السياسية، بدءًا من الجمل عبورًا بصفين وانتهاء بالنهروان. فلما أن تراكمت آثار الجولات الثلاث جميعًا استحالت ظاهرة القصور التنظيمى إلى ظاهرة (العجز التنظيمى)، والعجز التنظيمى هو باختصار «فقدان زمام المبادرة».

وهكذا فإننا بعد النهروان لا يصح أن نتحدث عن إدارة (علي) للصراع مع خصومه، وإنما بالأحرى ينبغى أن نتحدث عن إدارة خصومه للصراع ضده، حتى وضع القدر خاتمة هذا الصراع من بعد.

وقد تتالت مبادرات خصومه بعد ذلك على النحو التالى:

١- اتصال معاوية بأثرياء الكوفة والبصرة، بالأعطيات والمكاسب، وإثارة الفتنة بالبصرة.

٢- فتح معاوية لمصر بواسطة عمرو بن العاص وقتل واليها محمد بن أبى بكر، بل وقتل الأشتر النخعى بالسم عند «القلزم» قبل أن يلى مصر بدلاً من ابن أبى بكر.

٣- اتّباع معاوية تكتيك (حرب العصابات) على أطراف العراق حتى أقضّت مضاجع أهل العراق.

٤- حرب داخلية (حرب عصابات منتظمة أيضًا) أخذ يشنها الخوارج على علىّ، فاكتملت بذلك دائرة الحصار الدامى من حول على بن أبى طالب.

فلما وصل على بن أبى طالب إلى هذه الحال، ثارت فى نفسه نوازع الفروسية والجهاد، فاستحث رجاله مرة أخرى وأخيرة - بعد أن استحثهم كثيرًا كثيرًا - وخاطبهم حتى أحسوا بالذنب، واجتمع له منهم جيش كبير. وبدأ هو يكمل استعداده لقتال أهل الشام، وإذا به يلقى طعنة قاتلة من «الخارجى» عبدالرحمن بن ملجم - على نحو ما هو مذكور تفصيلاً فى كتب السيرة.

وبذا أمضى (علىّ) فترة خلافته كلها فى معارك متصلة من أجل تثبيت سلطته التى لم تثبت قط، ومن أجل الشروع فى تحقيق (ثورة لم تتم).

وقضى على بن أبى طالب، وقدر له أن يظل من بعد موته، رمزًا من رموز «الإسلام الحقيقى» عبر التاريخ، وعلمًا على ضرورة وصيرورة التطور الاجتماعى (الارتقائى) الدائم.

* * *